حديث في الأدب الساخر

محاضرة ألقيت في منتدى الثلاثاء الثقافي بتاريخ ١٧ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ الموافق ١٢ مايو ٢٠٠٩م

حسن السبع
أديب

العنوان هو (حديث في الأدب الساخر)، وهناك خيط رفيع بين ما سأتحدث عنه فيما يتعلق بالأدب الساخر وبين حس الدعابة والدعابة وأدب الفكاهة والأدب الضاحك وإلى آخره من المسميات. ولذلك، فإن كل ما يدخل ضمن إشاعة البسمة والضحكة الهادفة يدخل ضمن هذا المسمى.

في بداية الترشيح للخلافة كانت هناك مفاضلة بين من سيتولى أمر المسلمين، وعندما ذكر اسم الإمام عليE قيل: نعم الفتى أبا الحسن؛ لولا أن فيه دعابة. حدث ذلك في الوقت الذي ورد عن الإمام علي عليه السلام قوله: «من كان به دعابة فقد برئ من الكبر»، كما ورد مرارًا تأكيده على أنه لا يجتمع الكبر والدعابة في شخصية واحدة، وهذا مدح للدعابة وليس ذما لها؛ الأمر الذي يضعنا أمام مفارقة عجيبة، حيث أن تنحية الإمام علي عليه السلام كانت بحجة الدعابة التي لا تتفق مع ولاية أمور المسلمين.

السياسي الفرنسي (مونترلاند) أكد رأي الإمام عليE فيما يتعلق بالدعابة حين دعا إلى حجب الثقة عن المتجهم غير البشوش؛ مخاطبًا الناخبين في فرنسا بقوله: «يجب أن لا تعطوا ثقتكم لمن لا يبتسم أبدًا». أما الشاعر الألماني (جوته) فقد كان يقول: «ليس أدل على شخصية الرجل من استجابته لما يستثير الضحك».

منتدى الثلاثاء الثقافي
Thulatha Cultural Forum

لا شك أن العالم الغربي ينظر للدعابة بشكل مختلف، فواقعه يؤكد عدم ترشيح شخص ما لمنصب أو وظيفة اعتبارًا لما يحمله من شهادات؛ مقابل افتقاره لحس الدعابة، فهذا الأمر قادر وحده على حرق كل التوصيات المقدمة في شأنه؛ مما سيحرمه من تقلد المنصب الذي يطمح له. أما مجتمعنا العربي فيعد في بعض أحواله التجهم فضيلة ووقارًا؛ ذاك أننا مجتمع يخاف الضحك. ألا ترون أنّا حين نضحك كثيرًا نختم بقولنا «اللهم اجعله خيرًا»؟

لقد قدم الأستاذ عبد الوهاب العريض في مقدمة الحديث باستهجان الدعابة، فضلًا عن الضحك من أجل الضحك، وهذا الاستهجان هو ما دفع كثيرًا من الأدباء الذين بدأوا هزلين لمجافاة هذا اللون الأدبي والتوجه للأدب الجاد. ولئن بقي بعضهم يكتب فيه إلا أنهم عملوا على تخبئة دعاباتهم في الأدراج ليقرأوها في مجالسهم الخاصة فقط.

ذات يوم في منتصف الثمانينيات، وكنت في مجلس أحد الأصدقاء قرأت قصيدة ضاحكة عارضت بها قصيدة لبيد بن ربيعة «عفت الديار محلها فمقامها، بمنى تأبد غولها فرجامها»، وتحدثت فيها عن محدثي النعمة نتيجة الطفرة الاقتصادية في سبعينيات القرن الماضي، وكان في المجلس مجموعة كبيرة من الأدباء؛ فاستنكر علي أحدهم وسألني عن سبب صرفي وقتي في «قصائد كهذه» وعدم جديتي، ولذلك قدمت له بمقدمة في ديواني ركلات ترجيح الذي ضم القصيدة ذاتها، وكان عنوان المقدمة «ليس اعتذارًا»، ذكرت فيه كيف تتفاوت نسب التلقي لمثل هذه النوعية من النصوص اعتمادًا على ثقافة المتلقي وسعة أفقه واستعداده النفسي.

أريد أن أؤكد هنا أننا حين نتحدث عن الأدب الساخر فإننا لا نسخر بأشخاص، وإنما بسلوك معوج يحتاج لتقويم. وهناك فرق بين أن تهجو شخصًا وبين أن تهجو سلوكه؛ فقد يعرضك الأول

للمحاكمة والعقاب، فيما لا يفعل ذلك الثاني. ويبقى السؤال في الحالتين عن الضحك إن كان يرتدي حلة الهزل، والحقيقة أنه كذلك؛ فهو شكل من أشكال التعالي والسمو على القبح المتمثل في جميع الممارسات المعوجة.

ويرى (هنري بريكسون) أننا نضحك من كل ما هو تصلب وجمود في الجسد والطبع والفكر من الأمور الغير إرادية والطبيعية، فلا يعقل مثلاً أن يضحك أحدهم على شخص جلس على الأرض بملء إرادته؛ فيما سيضحك أو يبتسم على الأقل في حال سقط مثلاً.

والصلابة التي يتحدث عنها بريكسون يعبر عنها بأنها «المضحك، والضحك قصاصها»، إلا أن الصلابة حقيقة ليست واحدة، وكذلك القصاص؛ ذاك أن ردة الفعل الضاحكة إزاء الصلابة الجسدية أقل من ردة الفعل إزاء التصلب في الطباع وفي التفكير. وقد كان الإبداع الأدبي الفني ضد تلك الصلابة التي لا تتفق مع ما في الحياة من مرونة وتواز. ومن ثم فإن شأن أهل الأدب والفن شأن بقية الناس الأسوياء، ميالون لنقد الواقع بتلك الطريقة الضاحكة، فهم محبون للنكتة إن لم يكونوا أكثر ارتباطًا أو افتتانًا بها. والدعابة هجاء للصلابة بصيغة مرنة، أو هي معارضة لا تتخذ العنف منهجًا، أي أنها شكل من أشكال المقاومة السلمية

دعونا هنا نتأمل بعض النماذج الأدبية الساخرة لمقاومة بعض السلوكيات، كالشراهة، والبخل، والتطفل، وغيرها من الأمراض الاجتماعية:

يقول أحد الشعراء في شخص يدعي الكتابة:

حمارٌ في الكتابةِ يدَّعيها ... كدعوى آل حربٍ في زيادِ
فدعْ عنك الكتابة لستَ منها ... ولو غرّقتَ ثوبك في المدادِ

وفي الشراهة يقول أحد الشعراء:

أحسبهُ ما فيه إلا فائدهْ ... يشرب الجبَّ يعرِّي مائدهْ

وفي البخل يقول ابن الرومي:

يقتّر عيسى على نفسهِ ... وليس بباقٍ ولا خالدِ
ولو يستطيعُ لتقتيرهِ ... تنفَّس منْ منخرٍ واحدِ

ويقولُ أبو محمد السلمي في التطفل:

لو طُبخت قدرٌ بمطمورةٍ ... في الرُّوم أو أقصَى حدودِ الثغورْ
وأنتَ بالصينِ لوافيتهَا ... يا عالمَ الغيب بما في القدورْ

ويقول أحدهم في الثقل عن أحد الثقلاء:

وثقيلٌ أشدُّ من ثِقَل المو ... تِ ومن زفرةِ العذابِ الأليمِ
لو عصتْ ربَّها الجحيمُ لما كا ... نَ سواهُ عقوبةً للجحيمِ

وقد يتساءل أحدنا أو بعضنا عن الهدف من الأدب الساخر، والحقيقة أن هذا الأدب سلاح، ولكن ناعم، وهو مشنقة، ولكن من حرير. لذلك يجرح دون نزف؛ فحين يقول شخص لآخر: أنا أبحث عن الشرف وأنت تبحث عن المال؛ فيرد عليه الآخر بقوله: كل منا يبحث عما ينقصه؛ نكون قد سمعنا ردًا قويًا مغلفًا بالسخرية، وحين تخاطب ليدي استر تشرشل في البرلمان البريطاني فتقول له: لو كنت زوجي لوضعت السم في قهوتك، ويرد عليها تشرشل بقوله: ولو كنتِ زوجتي لشربتُ القهوة.. نكون قد وقفنا على رد ذكي مفحم.

ويحكى أن الشيخ عبد العزيز البشري قد دُعيَ ليقضي أيامًا في مزرعة أحد الوجهاء مع مجموعة من الأصدقاء. وفي أحد أوقات الصلاة ذهب ليتوضأ، وترك جبته معلقة، فلما عاد وجد أحدهم قد رسم عليها بالطبشور وجه حمار. فما كان من الشيخ إلا أن نظر إليهم الشيخ بهدوء، ثم قال: من منكم مسح وجهه في جبتي؟. ولا شك أن جوابه كان رغم مرونته أحد من العبارة القاطعة المانعة، الأمر الذي ساق لضحك كان ممكنا أن يتحول لموقف ساخن لو لم يتعاطَ معه البشري بذكاء.

ويعج تراثنا الأدبي بمواقف كثيرة لأدباء ضاحكين؛ كالجاحظ

مثلًا، والذي عرف عنه قوله: والله ما تركت النادرة، ولو قتلتني في الدنيا وأدخلتني النار في الآخرة، وكعلي بن سعدون البشبغاوي الذي عاش في القرن التاسع الهجري. وسأخصص له بعض حديثي لاحقًا.

أما في عصرنا الحديث، فقد عرف في مصر الشاعر عبد الحميد الديب الذي ترك للأدب العربي ذخيرة ثرية من الأدب الضاحك، رغم حياته المأساوية التي طفحت بالفقر والمتاعب. كما عرف حسين شفيق المصري، وهو أحد شعراء القصيدة (الحلمنتيشية)، وله كثير من المعارضات الضاحكة؛ فقد عارض المعلقات بقصائد أسماها (المشعلقات)، ولا بأس أن أقرأ لكم شيئًا من شعره الذي عارض به امرئ القيس في قصيدته «قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل»، وفيها قال:

فشبرة فالبرادُ لم يعفُ رسمهَا ... لمن هوَ فيها من تهامي وفرغلي
يبيعان مشويَّ الطحالِ وتارةً ... يبيعانِ منبارا فخذ منه وكلِ
كدأبك من أم الفلافل قبلهُ ... وجارتها أم الخلولِ بشيخ علي
مطاعمُ مكروباتها تلدُ العمىَ ... لعينِ كثيرِ الأكلِ والمتقللِ
إذا ذقتُ منها قطعةً فكأنني ... لدى سمراتِ الحيِّ ناقفُ حنظلِ
ويارُبَّ ثعبانٍ من الغشِّ ساكنٍ ... ببطني كقنوِ النخلةِ المتعثكلِ
ومصلحةٌ للصحةِ اليومَ صَهيلت ... على فعلِ عزرائيلِ والمتعزرلِ
أدكتورُ مهلا بعضُ هذا التدلُّل ... وإن كنتَ قد أزمعتَ قتليَ فاقتلِ
أغرَّك منِّي أنَّ جيبيَ فارغٌ ... وأنكَ مهما تفتحِ البابَ أدخلِ

أما في الأدب الغربي فقد اشتهر موليير في القرن السابع عشر الميلادي الذي أضحك الناس في عصره وعصور لاحقة؛ رغم ما اشتهرت به حياته من مآسٍ. كذلك هناك (جورج برنارد شو) الذي تعمد التحدث على نحو جعل الناس يتصورون أنه مجنون، فحظي لذلك بحرية تمتع بها مضحكو البلاط خاصة. وهناك (ماركت ون) الذي لقب (بفولتيير) أمريكا، وكان رمزًا من رموز الأدب

منتدى الثلاثاء الثقافي
Thulatha Cultural Forum

الساخر فيها.

والضحك من أجل الضحك فقط قضية تطرح أسئلتها كلما دار حديث الأدب الساخر. وشخصيًا لا أجد حرجًا من ذلك؛ فهل كتب علينا أن نكون مهمومين وحزانى وأن نؤجل الضحك كما نؤجل الاستمتاع بكثير من الأشياء الجميلة لا لشيء؛ سوى أننا نعيش واقعًا صعبًا يتطلب التعاطي معه جدية ولا شيء غير الجدية، فنكون بذلك يدًا للزمان علينا؟

هنالك فوائد كثيرة للضحك ذكرها المؤلف حسين علي لوباني الداموني في كتابه (الملف السري للنكتة العربية). ومما جاء في كتابه أن الضحك يحفظ الوجه من التجاعيد، ويعمل على طرد الدهون والسموم، ويقوي جهاز المناعة، وينشط عملية الهضم وحركة الأمعاء، ويخفض الضغط الشرياني، ويهدئ الأعصاب، ويقضي على الأرق، ويحث الجسم على إنتاج كمية أكبر من هرمونات الأندروفين التي تخفف من الشعور بالألم، وتزيل القلق، وتعدل المزاج. وقد يلعب الضحك - والرأي للداموني - لدى الرجال دورًا شبيهًا بدور الفياجرا.

وهناك مقولة لناقد عاش في عصر المتوكل العباسي اسمه أبي العنبس الصيمري، يقول: «قل الشعر جيدًا جيدًا، أو باردًا باردًا، وإياك والفاتر؛ فإنه صفع كله». وأن تكون شاعرًا في منطقة وسطى بين الجودة والبرودة فهذه مشكلة في نظر أبي العنبس؛ إلا إنه يرى أن الشعر البارد جدًّا، شعر جيد لما يثير في النفس من متعة وضحك، على نقيض الشعر الفاتر الذي لا يخرج معه المتلقي بفائدة أو متعة. ودعوني أستشهد لكم هنا بنماذج من الشعر البارد نتيه به للضحكة فيما بيننا مجالًا.

كنت قد تحدثت عن علي بن سعدون البشبغاوي، وأشرت بحديث لاحق عنه. والبشبغاوي شاعر تفنن في كتابة الشعر البارد الجميل؛ فهو يتكلم عن بديهيات لا تحتمل التشكيك من قبل أحد

منتدى الثلاثاء الثقافي
Thulatha Cultural Forum

بأسلوب ممتع، فيقول مثلًا:

عجبٌ هذا هذا عجبُ ... بقرٌ تمشي ولها ذنبُ
ولها في بزبزها لبنٌ ... يبدي للناسِ إذا حلبُوا
لا تغضبُ يوما إن شُتمتْ ... والناسُ إذا شتموا غضبُوا
من أعجبِ ما في مصرَ يُرى ... الكرمُ يُرى فيهِ العنبُ
والنخلُ يُرى فيهِ بلحٌ ... قالوا ويُرى فيهِ رطبُ
البِيض إذا جاعُوا أكلوُا ... والسمرُ إذا عطِشوا شربُوا
الناقةُ لا منقارَ لهَا ... والوزةُ ليسَ لهَا قتبُ

وله قصيدة أخرى يقول فيها:

إذا ما الفتى في الناس بالعقل قد سما
تيقن أن الأرض من فوقها السما
وأن السما من تحتها الأرض لم تزل
وبينهما أشياء إذا ظهرت ترى
وإني سأبدي بعض ماقد علمته
ليعلم أني من ذوي العلم والحجى
فمن ذاك أن الناس من نسل آدم
ومنهم أبي سعدون أيضًا ولو قضى
وأن أبي زوج لأمي وأنني
أنا ابنهما والناس هم يعرفون ذا
ولكن أولادي أنا لهمو أب
وأمهمو لي زوجة يا أولي النهى

ومن الشعر البارد ما نقرأ كثيرًا في الشعر الشعبي. وقد اخترت لكم نماذج قال أصحابها كل شيء في الحين الذي لم يقولوا شيئًا.

يقول أحدهم:

البارحة ونيت خمسين ونَّة
ولو ما نعست ونيت واحد وخمسين

ويقول آخر:

يا ليتني في جيبك ريال مقطوع
يبقى معك ما يقبله أي دكان

ويقول ثالث متأثرًا بقيادة السيارات:

حبك حشرني حشرة القير باثنين
الضغط سنة والتواير مصاليخ

ويقول رابع تحت نفس التأثير:

قلبي قبل فرقاك ما ينقصه الزيت
واليوم أزيده بكل مشوار علبة

ويقول خامس مازجًا التراث بالحضارة الغربية:

هات الذلول وهات قوطي سفن أب
نغزي ديار القوم وناكل جلكسي

كان ما تقدم تناول للأدب الساخر شعرًا. أما نثرًا، فهنالك كتّاب كثرٌ أيضًا لهم فيه تجربة نستشهد لها بالكاتب والشاعر الكبير جورج جرداق. فمما قرأت له من مقالات ساخرة مقال عن حكاية الأسماء جاء في بعضه قوله:

«ما أكثر ما تلتقي امرأة سوداء مثل الفحمة المغطسة في القار ويكون اسمها شمس، أو سناء، أو بهية. وقد تنحني نصف متر أو أكثر لكي تتمكن من مصافحة واحدة اسمها هيفاء. وليس غريبًا أن تقابل امرأة تحتاج لكتاب كامل لوصف ما أودع الله فيها من أشكال مغلوطة ومخلوقة، فإن سألتها ما اسمك؟ قالت: زينة أو فاتن أو جمال. وليس عجيبًا أن يقترن اليأس والقنوط وانقطاع الأمل بطلعة واحدة اسمها رجاء».

ويقول في مقطع آخر: «وقد تحمل إحداهن اسم عفيفة وتكون ساكنة في بيت عفاف. وعفاف هي صاحبة البيت الذي اشتهر منذ سنوات بتقديم خدماته لطلاب الكيف في ليالي الصيف. وقد

تخطف إحداهن رجلًا وتهرب به من بيت أبيها ولا تعود إليه مع أن اسمها عائدة، وربما تشاهد امرأة قابضة على زوجها الشهم تريد أن تفك رقبته وتمرغه في التراب وتسأل عن اسم هذه الفارسة المغوارة فيقولون اسمها دلال أو رقة».

المقال طويل حقيقة، والحديث في موضوعه أطول؛ خصوصًا وأنه لدي الكثير من الأدبيات، لكنني سأتوقف عن الحديث، وأختم بمقاطع أدبية ساخرة شخصية، تلبية لرغبة الأستاذ عبد الوهاب العريّض؛ أترك الفرصة بعدها لمداخلاتكم وتعليقاتكم.

في قصيدة بعنوان (أمام الصراف الآلي) قلت معارضًا جرير في قصيدته «لولا الحياء لعادني استعبار، ولزرت قبرك والحبيب يزار).

لولا الحياءُ لهاجنِي استعبارُ ... لمَّا جفانِي اليَنُّ والدولارُ
ووقفتُ أسألُ عن رصيدِي آلةً ... صمَّاء تقطنُ جوفها الأخبارُ
فترددتْ خجلا وعدتُ أحثُّها ... فتراقصتْ في الشاشةِ الأصفارُ
هيَ رأسُ مالي منذ أصبحَ شاغلي ... علمُ العروضِ وبزنسي الأشعارُ

في نص آخر قلت على لسان زوج يحدث زوجته بين الحداثة والتقليد:

شمِّري لي عنْ ساعديكِ وجودي ... ودعِي عنك صرعةَ الفاستِ فودِ
واكبسيها رزًّا ولحمًا صريحًا ... أو دجاجًا يُشوَى علَى السَّفودِ
فأنا أعشقُ الحداثةَ شعرًا ... غيرَ أنيِّ في مأكلِي تقليدِي

ومثل هذا الشعر يسمى بالشعر الحلمنتيشي. وهو فن لا يراعي قدسية القصيدة التقليدية؛ ففيه توظف بعض الكلمات الأجنبية والعامية التي تنزل بعلياء القصيدة العمودية من عليائها. ومع الشعر الحلمنتيشي سأستمر لأقرأ عليكم قصيدة بعنوان (مشروع وجاهة). وفيها قلت:

أردتُ أنْ أكشخَ ذاتَ يوم ... وأنْ أصيرَ منْ كبارِ القومِ
فابتعتُ بشتًا رائعَ التطريزِ ... ليصبحَ الصعبُ عليّ إيزِي
دفعتُ من قيمتهِ ألفينِ ... نقدًا وباقِي سعرهِ بالدينِ

ثم بدتْ لي فكرتي سقيمهْ فبعتهُ يومًا بنصفِ القيمهْ
فالبشتُ فوقِ شاعرٍ صعلوكِ كالسرجِ فوقَ بطةٍ أو ديكِ

وعن بعض ممارساتنا الخاطئة في الشارع؛ رغم ما نمتلك من وسائل تقنية وحضارة حديثة عارضت قصيدة عمر بن كلثوم في قصيدته «ألا هبي بصحنك فأصبحينا، ولا تبقي خمور الأندرينا» بقصيدة قلت فيها:

ونجتازُ الإشارةَ وهْيَ حمرًا ونهزأُ بانضباطِ السائقينَا
ونوقظُ بالزميرِ الناسَ فجرًا ونزعجُ في النهارِ الهادئينَا
وإنْ تمطرْ نرشُّ الوحلَ رشًّا علَى أثوابِ كلِّ العابرينَا
متىَ انطلقَ الونيتُ بنَا نفثنَا دخانًا فشي صدورِ العالمينَا
إذا الشكمانُ أعمَى الربعَ تاهوا فمَا يدرونَ ماذَا يتّقونَا
إذا الدَّوارُ لاحَ لنَا انطلقنَا لنعبرَ أوْ لنصدمَ منْ يلينَا
وما جدوَى الفراملِ عندَ قوم وقدْ ألفوا الكلكسَ مزمِّرينَا
وإنْ رمنَا منَ الأسواقِ شيئًا أنخنَا بنزنَا أنَّى رأينَا
فإنْ نَصدمْ فصدَّامونَ قدمًا وإنْ نُصدمْ فغيرُ مصدَّمينَا

منتدى الثلاثاء الثقافي

Thulatha Cultural Forum